الأستاذة الدكتورة حياة قارة
باحثة متخصصة في التراث الأندلسي
جامعة محمد الخامس
الرباط ـ المغرب

محاضرة بجامعة السوربون – باريس

بسم الله الرحمان الرحيم

الكتابة الرسمية :
الرسائل الديوانية

1ـ الرسالة الأولى

1 ـ كاتب الرسالة :

1 ـ 1 ـ كاتب هذه الرسالة هو **عبد الله بن أبي الخصال** ، ويغلب على الظن أنها صادرة عن القائد الأعلى الأمير **محمد مزدلي**، وهو من أكابر المرابطين ، له جهود كبيرة في الدور الأول من التاريخ المرابطي قبل دخول الأندلس ، وهو الذي استولى على بلنسية سنة 494 هـ .

1ـ 2ـ والرسالة مُوَجَّهة إلى **أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين** ، يُخبره بهذا الانتصار العظيم الذي حقّقه الجيش المرابطي في هذه الغزوة،وهي خالية من التاريخ، ومن البلد الذي صدَرت منه الرسالة .

2ـ الإطار التاريخي لهذه الغزوة :

2 ـ 1 ـ وتأتي هذه الغزوة في سياق سلسلة من الغزوات المتلاحقة التي قام بها المرابطون من أجل استرجاع مدينة طليطلة التي لها أهمية خاصة من حيث موقعها الاستراتيجي (الحربي) ، تقع على مشارف الأندلس الشمالية الوسطى ، ونحن نعرف أن طليطلة وأعمالها ، كانت منذ قيام الدولة الإسلامية بالأندلس تُعرف بالثغر الأوسط ، لِمُتاخمة حُدودِها للممالك الإسبانية النصرانية، واعتبارِها بذلك حاجزَ الدولة الإسلامية وجَناحَها الشمالي الأوسط ، ضِدّ عدوان النصارى .

فهي أمُّ المعاقل وقاعدةُ المدائن ، وقد حرص الحكامُ المسلمون على التمسك بها والدفاعِ عنها ، ووصفها المؤرخون بأنها مدينة مُمتَنعة من كل الجهات ، بوَثاقة أسوارها ، ووُعورة مسالكها.

2 - 2 ـ ويتبين من خلال المصادرالتاريخية الإسلامية أن الغزوةَ التي قام بها الأميرُ يحيى بن يوسف بن تاشفين صُحبة الأمير سير بن أبي بكر ومحمد بن الحاج ، أوّلُ محاولةٍ تمّت في عهد الرابطين (سنة 493 هـ / 1099 م)، يقول عنها ابنُ الكردبوس " وساروا جميعاً حتى نزلوا على طُليطُلة ، وحاصروها وشَنّوا الغارات على نواحيها ، وتغلّبوا على جُملة من حصونها " ص 109.
2 - 3 ـ وتُستَتبَع هذه المحاولة بأخرى قام بها الأمير علي بن يوسف سنة 503 هـ / 1109م فتح فيها مدينة طَلبيرة ، يقول عنها ابن عذاري : " وانقضى أمرُ هذه الحركة في أربعين يوماً ، فصدر علي بن يوسف ، وقد دوّخَ تلك البلاد ولم يُعهَد في ذلك الوقت مثلُ هذه الغزوة قوةً وظُهورا، وعُدّةً ووفورا ، وبقي رعبُه في االروم " (ج4 / ص 52).

وفتح من أحوازها سبعاً وعشرين حصناً (الأنيس المطرب ص 204).
ثم عُزّزت ذانك المحاولتان بمحاولة ثالثة قام بها الأمير محمد مزدلي كما أوضحنا سابقاً . وبقي الأمل مشتعلا في نفس هذا القائد المرابطي ، إذ تكررت غزواته إلى طليطلة ، طوال سنة 508 هـ/ 1114 - 1115 م ، حيث توفي غازياً على مقربة من حصن مِسطاسة .

2- 4 ـ تشيرالرسالة إلى الغزوة المشهورة في كتب التاريخ التي وقعت في سنة 507 هـ / 1113 م، حيث توجه هذا الأمير إلى طُليطُلة عاصمةَ مملكة قشتالة ، فحاصرها وفتح كثيرا من حصونها، ودوّخَ بسائطَها وأبلغ في نكايتها ، حسب الروايات المتداولة.
ومضمونُ الرسالة يؤكد ذلك ويوضِّحُ المعاقلَ والحصون التي دخلوها ، من بينها **قرية مَكّادَة ومدينة شَنَت أولالية**.

2- 5 ـ وهذه التفاصيل التاريخية لم أجد لها ذكراً في معظم المصادر التاريخية التي وقفت عليها ، يضاف إلى ذلك الإشارة إلى حصن أُريلية (أوريخا) الذي ذكره ابن أبي زرع الفاسي ، باعتباره من الحصون التي تمّ فتحها في هذه الغزوة ، (الأنيس المطرب ص 204 ، وفيه أرهينة).
بينما نلاحظ في هذه الرسالة أن أُريلية في هذه الغزوة هي تحت سلطة المرابطين ، إذ إن عاملها هو الذي كان يُمدّهم بالمعلومات المتعلقة بالجيش القشتالي بقيادة ألبر هانس

3ـ بعض الروايات التاريخية :

أ ـ وفي هذا السياق يذكر **ابن أبي زرع** أن الخبر اتصل **بالبرهانس** ملك الروم Alvar Franz ، يقول : " وفي سنة سبع المذكورة ، غزا الأميرُ مزدلي طُلَيطُلة وأنحاءَها فدوّخها ، وفتح حِصنَ ارهينة عُنوة ، وقتَل كلَّ من كان به من

الرجال،وسَبَى النساء والذّريّة ، فاتصل الخبر بألبرهانس ملك الروم ، " فأقبل لنُصْرتهم واسْتِنقاذهم،فسمع به مزدلي فقصد للقائه، ففرّ أمامه ليلاً ، ورجع مزدلي إلى قرطبة ظافراً غانما " : الأنيس المطرب ص 204 .

ب ـ وقال ابن عذاري : " في سنة سبع وخمسمائة خرج الأمير مزدلي من حضرة **مراكش** إلى الأندلس ، وولاه علي بن يوسف على مدينة **قرطبة و أغرناطة** ، فأجاز البحر إلى مدينة إشبيلية ، فاستمد (....) الأمير **سير بن أبي بكر اللمتوني** ، فأمدّه بعسكر ضخم من المرابطين والحَشَم وغَيرِهم ، وانضمَّ إليه عَسكرُ قرطبة وغرناطة ، ولَمّةٌ من العُدوة ، ولفيفٌ من المُطَّوِّعَة خيلاً ورَجلا، فعظُمَ الجيش ، وأمَّ به الأميرُ **مزدلي** أرضَ **طليطُلة** ، فدوّخها واكتسح به أوديتَها ، وأبلغ في نِكايتها ، وصَدر إلى قرطبة ظافراً ظاهراً من عَدُوّه" . (البيان المُغرب ج 4 / ص 57 ـ 58).

ج ـ وفي كتاب **الاكتفاء في أخبار الخلفاء لابن كردبوس التوزري** (عاش في أواخر القرن السادس الهجري) :

" وفي سنة سبع وخمسمائة (1113 م) غزا الأميران سير بن أبي بكر، ومزدلي **طليطلة** ، وشنّا على جميع تلك الجهات السّرايا والغارات ، فهدَّموا ودمدَموا ، وحرَّقوا، ومزّقوا كلَّ مَن لَقُوا ، فتعرّض لهم **ألبرهانس** ـ لعنه الله ـ في عشرة آلاف دارِع، فهزماه وأثخناه ، وقتَلاَ من جماعتِه سَبعِمائة فارس ".(ص 121).

4 ـ خطة الحصار الاستراتيجي على طليطلة :

ـ حصار المدينة عن طريق شمال قرطبة مرورا بمدينة غافق التي تقع شمالي قرطبة ،

وبقلعة رباح ، وهي من أهم القلاع والحصون التي استردّها المرابطون ، وأهميتُها الاستراتيجية تتجلى في كونها الحدَّ الفاصل بين أرض النصارى وأرض المسلمين .

ـ قدومُ الجيش القشتالي ومحاولتُه الغدرَ بمدينة مِسطاسة ، وعُدّتُهم 3000 بين خَيل ورَجل ، واضطرارُه للوقوف بوادي الرمل وهي سلسلة من الجبال تقع على بعد 30 كيلومترا شمال طليطلة .

ـ تغيير استراتجية الغزوة ،حيث يمّم المحاربون وجوههم شطر مكادة و شنت أولالية ويقعان شمال طليطلة ، إذ تقع مكادة في الشمال الغربي منها.

ـ تفاصيل الغارة الحربية التي شنّها الجُند ،وعَددُهم ألف وخمسُمائة فارس ، على قرية مكادة ومدينة شنت أولالية.

5 ـ منهجية الترسيل :

ـ الرسالة هنا تحمل اسمَ كتاب ، وهذا يشير إلى أن الخطاب صادرٌ عن السلطة الجهوية وموجَّهٌ إلى السلطة المركزية ، وهي العاصمة مراكش.

ـ نلاحظ هنا ألفاظ الدعاء التي تدل على المدن التي هي تحت سيطرة المسلمين وتلك التي هي تحت سلطة النصارى ، مثل قوله : طليطلة ـ أعادها الله ـ / غافق ـ حرسها الله ـ / قلعة رباح ـ حرسها الله ـ

ـ أما أداة الخطاب الموجَّهة للأمير هنا فهي " الكاف " عوضا عن "الهاء" التي أقرها الأميريوسف بن تاشفين ، يقول ابن سماك العاملي في هذا الإطار :" أن يكون الخطابُ كلُّه جوابا بالكتابة عنه " بالهاء" التي هي كناية الغائب دون " الكاف" التي هي للمخاطب ، فَرقاً بينه وبين من هو دُونَه ، وأن يَلتزمَ ذلك أهلُ المملكة ، وأن تَخرج كُتبُه بالخبر عن مخاطبته تعظيماً لقَدره ، وإكباراً لمحلّه ، فجرى الرسمُ بذلك. (الحلل الموشية ص 32).

نصُّ الرسالة :

(انتخب البونسي هذه الرسالة ضمن رسائل منتخبة أخرى ، قدّم لها بقوله: " ومن أحسن ما كتبوا في التهنئة من الكلام الرفيع ، والنثر المُشتمل على كلّ معنى بديع").

وفي المعنى لأبي عبد الله بن أبي الخصال :

كتابُنا بعد صَدَرِنا عن الغزوِ الذي نحنُ فيه ، والحَمدُ لله بين أمرٍ جَميل ، وصَنيعٍ جَليل، وعَملٍ مَبرورٍ يُرفَع ، وسَعيٍ مشكورٍ يُضْمَنُ لِصحائِفِ القَبولِ ويُسْتَودَع . ونحنُ نَشرَحهُ لك حَسْبَ اتِّفاقه ، ونَسوقُ القولَ على اتِّساقِه ، لِتَتَلقّى فضلَ الله بما تَلقّيناهُ من شُكرِه ، وتُقدّرَ صُنعَهُ الكريمَ حقَّ قَدْرِه.

فكانت وِجهتُنا هذه ـ تقبَّلَها اللهُ ـ مَعقُودةٌ أوّلاً على قصدِ العدُوِّ المُنيخِ على **"طُليطُلة"** ـ أعادها اللهُ ـ لِرفْعهِ عن عُقْرِهَا ، ودَفْعِهِ عن أفْقِها وقُطْرِها ، إذْ كانَ الدِّفاعُ عن أهلِها من

قواعِدِ الصُّلحِ وَعُقودِه ، وشُروطِ السِّلْمِ وعُهودِه . فترامَتْ إلى العَدوّ ـ دمّره الله ـ الأنباءُ بازدِلافِنا إليه ، وورَدَتهُ عيونُه بِمَقْدَمِنا عليه ، فاستشعرَ الخَوفَ رُوعُه ، وفُضَّ بِمهَابتِنا جَمْعُه ، ووردَنا الخبرُ بِقُفُولِه ، ونحنُ إذ ذاك لم نتعدَّ **"غَافِق"** ـ حَرسَها الله ـ فهناكَ عَقَدْنا الضّميرَ على النّفوذِ لوجهَتنا والتّمادِي في غَزوتِنا ، حتى نطأَ بلادَهُ وَطْءَ مُقيَّد ونُعِيدَ مَصانعَها كالطّريقِ المُعَبَّد ، فَسِرنَا حتى وَافَينا **"قلعةَ رَبَاح "ـ** حَرَسها الله ـ

فوصلَ إلينا بها كتابُ عامِلِ"**أريليَة**"، يَذكُر أن الجَمْعَ المُنفصِلَ آنفا عن"**طليطُلة**" تألّفَ مرّةً في حَفْل ، وأقبلَ يُريدُ غدرَ" **مِسْطاسَة**" في ثلاثةِ آلافٍ بين خَيْلٍ ورَجْل ، ودَنا حتى اضطرَبَ مَحلَّتَهُ " **بوادي الرّمْل**" ، فاسْتَخَرْنا اللهَ على قَصْدِه ، واستعنّاهُ

سُبحانَهُ على حَطْمِه ، وصَمَدْنا تِلقاءَه ، وصَمَّمنا لا ننوي إلاّ لِقاءَه ، ووَصَلنا نحوهُ السَّيرَ فأَدركناه ، وحَثَثْنا السّعيَ ووالَيْناه ، حتّى لَحِقْناه "**بِدارِ الفائزة**" ، فَبِتْنا بها ناجِزينَ لِبَيَّتِنا، عامدينَ لِطَيَّتِنا.
فَوردَ أيضاً كتابُ عامل "**أريلية**" المذكور، وأنَّ هذا العدوَّ المحتلّ " **بوادي الرمل**" ، أَسِرَ رجلاً من أهل "**أريلية**" ، فحدَّثَه بما أردناه ، وأخبَرهُ بِقَصْدِنا إيّاه، فَكَعَّ عن المُصامَدَة ، وضَعُف عن المُقَاومَة ، ونَكصَ على أعْقَابِه ، ورأى أنَّ وَجْهَ الحَزمِ في انقلابِه ، فَحَمِدنا اللهَ تعالى على ما أوهَنَ مِن كَيْدِه ، وأَضْعَفَ مِن أَيْدِه ، ورَأينا عندما صَحَّ لدَيْنَا من خَبرِه ، وتَبيّناهُ من صَدَره ، أن نَجْعلَ الغَزوَ إلى جِهَتَيْ " **مَكَّادَة و " شَنَت أولآلية** " ، فتقدَّمنا نَحْوهُما ، ويَمَّمْنا بينَ أُفْقِهِما ، فقَدَّمْنا بينَ أَيْدِينا منَ العَسْكَر ـ أنْماهُ الله ـ ألْفاً وخمسِ مائةِ فارس، تُصْبِحُهُم مُغيرَة، وتَحُلُّ بهم دَائرةٌ مُبيرَة ، فصبَّحوا " **مَكّادة** " وأَحْرَقُوها من جميعِ جِهَاتها ، وشَنُّوا الغَارةَ على ذواتها ، واكتسَحُوا ما وَجَدُوا من غَنيمَتِهم، واسْتَوعَبَ القتلُ والأَسْرُ مِن أَلفَيْ خَارِجَ مَدينتِهم، ثم تَلَوْناهَا نحنُ في جَمْعِنا المَوْفُور، ولِوائِنا المَنْصُور،فقَدِمْنَاهَا فمَا اضْطَرَبْنا الأَبنية، ولا نَصَبْنا الأَخْبِية ، حتىّ دمَّرْناها تَدْمِيرا ، وجَعلناهَا هَباءً مَنثُورا.
ودامَ أعداءُ اللهِ ثُبوتاً فَرَشَقَتْهُمُ السِّهَام، وطَالَعَهُمُ الحِمَام ، واشتَدَّ عَليهِمُ القِتَال ، وضَاقَ بهمُ المَجَال، حتّى دُخِلَتِ المدينةُ عليهِم مِن أَبوابِها، وَأَلْجَأَهُمُ الحَصْرُ إلى التَّرقّي في أَسْبابِها ، والتّعَلُّقِ بِذَوَائبِ قِصابِها، واسْتُبِيحَ حِمى المدينة بِأَخلائِها ، واستولى السَّبْيُ والحَريقُ على أَرْجائِها ، وصارَ أمرُ أَعداءِ اللهِ آخراً إلى أن تَحَزَّبوا بالقَصَبَةِ لِمَنَعَتها ، وَاعْتصَمُوا بِذِرْوَتها وَعَقْوَتِها ، وكانوا عدداً جَمّاً لا طَمَعَ لنا في غَلَبَتِهم إلاّ في الأَمَدِ الطّويل ، والاسْتِعْدَادِ الجَليل .
فأمسَكْنا عَنهُم بعدَ أن جَدَّ عليهِمُ البَلاَء ، وأَخَذَ القَتلُ مِنهُم والسِّبَاء ، ومَسَّ كَثيرا منهُمُ القُرْح ، وأَثْخَنَهُمُ الجُرْح، وخِلالَ مُحاوَلَتِنا أمرَ" **مَكّادة**" أنْفَذنَا إلى " **شَنَت أولآلية** " مِن عَسْكَرِنا ـ وقَّرَهُ الله ـ مَن عَاجَلَها بالحَيْف ، وَتَقَبَّلَها بالسَّيْف ، فقَتَلَ رِجَالَها ، وأَسِرَ عِيَالَها ، وألحَقَها مُلْحَقَ أختِهَا " **مَكَّادَة** " في التّغيير ، والحَريقِ المُسْتَطِير ، وصَدَرَ عنها، وقد زُلزِلَتْ قَواعِدُها ، وخُرِّبَتْ مَعاهِدُهَا ، وعُوجِلَتْ بِقَطْعِ الدَّابِر ، وغُودِرَتْ كالرّسْمِ الدّائِر ،وتُرِكَتْ تَنوءُ بالجَدِّ العَاثِر.
وحين فَراغِنا من حَطْمِ تلك الجِهات ، وتَدْويخِ تلك السَّاحات، أَخَذْنا في الصَّدَرِ باللِّواءِ مَنشُورَا ، والجمعِ مَوفورَا ، والفتحِ يُشرقُ نُورَا ، فَأُبْنَا ، وبلاءُ اللهِ عندنا حَسنٌ جميل، وظِلُّ السّلامةِ على الأولياءِ مَمدودٌ ظليل،والحمدُ للهِ على ما عَرَّفَنَا من الظَّفَر، وسَوَّغَنا من الغُنْمِ الأوفَر ، حَمداً يتكفَّلُ بمزيدِ النِّعَم ، ويقتضِي دوامَ صُنْعِهِ الأَكْرم ، لاربَّ غيرُه.
وطالَعناكَ لتأخذَ من النِّعمة المتَجَدّدةِ بِقَسْمِك ، وتَضربَ فيها بِسَهمِك، وتَبُثّها هنالك ، حتى يَستويَ الأولياءُ في ذلك ، وتبلّغْ سلاماً عميماً ، ورحمة الله.

التخريج : كنز الكُتّاب ومنتخَب الآداب لأبي إسحاق البونسي ، تحقيق ودراسة .
حياة قارة ،المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ،2004 ، ص 361 - 365 .

الرسالة الثانية :

1 ـ صاحب هذه الرسالة هو الفتح بن خاقان ، معاصر لعبد الله بن أبي الخصال.
كان الفتح بن خاقان في إشبيلية سنة 511 هـ ، حين عَيّن علي بن تاشفين أبا إسحاق والياً عليها . وقد أهدى إليه كتابه قلائد العِقيان قبل سنة 516 هـ ، لأن هذا الأمير عُزل عن إشبيلية سنة 516 هـ .
ونزعم أن الرسالة موجهة إلى هذا الأمير المرابطي ، أخ أمير المسلمين علي بن تاشفين ، ويصف فيها تفاصيلَ المعركة التي جرت بمدينة قُلُمْرية ، بزعامة القائد الأعلى علي بن تاشفين الذي استطاع أن يُحقق النصر ، كما يصف الفتح بن خاقان شجاعةَ وبطولة وفروسية المرابطين في هذه المعركة ، مُضَمِّناً عبارات النصر والفتح في هذه الرسالة ، وبذلك تكون روايةُ ابنِ سماك العاملي مؤلفِ الحُلل المَوشِية مؤَكّدةً لهذه الرسالة الديوانية الهامة التي تؤكد انتصار المسلمين في معركة قُلُمرية .

2 ـ النصوص التاريخية التي تحدثت ، وروت بعض تفاصيل هذه المعركة:

أ ـ يقول ابن عذاري عن وقعة قُلُمْرية :
" وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة تحرّك **أميرُ المسلمين علي بن يوسف** من حضرته **مراكش** إلى بلاد **الأندلس**،فأجاز البحر في أواخر مُحرّم ، ويَمّمَ **إشبيلية**، ريثما استتبّ أمرُ الغَزو ، ولحقت العساكرُ العُدْوية ، وتأهبَّت العساكرُ الأندلسية ، ولَحِقَت من **قرطبة** لَمَّةٌ من الفُقهاء والعُلماء ، ولفيفٌ من المجاهدين الزُّعماء خَيلاً ورَجلا ، وتأهَّب فقهاءُ إشبيلية ومُجاهدوها ، واستوفت مُطَّوَّعَةُ غرناطة ومُرَتِّبُوهُا، ثم تحرّك أميرُ المسلمين بجميع العساكر من إشبيلية لغزو قُلمورية ، فحاصرها عشرين يوماً ، وضيّق بها ، ثم انصرف عنها إلى إشبيلية ، ومشى عبد الله بن فاطمة والمنصور بنُ الأفطس فقابلا أرواماً في بلاد الروم ، ثم وردا إلى إشبيلية واستاقا غنيمة عظيمة وأسرى كثيرة ، وانصرف الناس إلى بلادهم ". (البيان المغرب ج 4 / ص 64).

ب ـ وفي **الحلل المَوشِية** ، يقول **ابن سماك العاملي** :" في سنة إحدى عشر وخمسمائة،افتتح فيها مدينة **قُلمُرية** ، ودوّخ بلاد الشِّرك بجيوشٍ لا تُحصى ، وكان أثرُه بها عظيماً ". (ص 86).

ج ـ وفي **كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب**(تح ليفي بروفنسال) ص 247 :
"... ثم أجاز البحر ثانية، ففتح مدينة طلبيرة، ثم أجاز ثالثة ، ونازل قُلُمْرية ، ثم

قفل عنها ".

د ـ وجاء في **كتاب تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ** " وجاز علي بن تاشفين بنفسه إلى إسبانيا في سنة 1121 م ، وهو يضطرم ألماً لهذه المحن ، وغزا أراضي طليطلة والبرتغال ، وأثخن فيها واستولى على قلعة قلمرية الهامة ، وأتى على جميع سكانها النصارى قتلا وأسرا " (1 / 153).

4ـ محاولة فتح قلمرية في عصري بني أمية والمرابطين :

قبل غزوة الأمير علي بن يوسف قلمرية ، كان الأمير سير بن أبي بكر توجه إليها وهدّدها ، وكانت حينئذ عاصمةَ الولاية ، بعد أن فتَح العديدَ من المدن البرتغالية.

وقبلَهُما كانت المحاولةُ التي قام بها الخليفةُ الأموي عبد الرحمان الناصر في جيش ضخم ،حيث انجلت الحربُ عن هزيمة النصارى (المقتبس لابن حيان القرطبي ، نشرة شالميتا ص 440 - 441)

5ـ البعد الاستراتيجي لمدينة قُلُمْرية :

قُلُمْرية من المدن البرتغالية التي لعبت دورا مهما خلال وجود المسلمين في الأندلس، إذ كانت أشبه َبمحطةٍ تجارية رئيسة بين مناطق إسبانيا المسيحية الشمالية ، ومناطقِ المسلمين في الجنوب، بعدا أن احتلها المسلمون سنة 716 م، لأجل ذلك شهدت هذه المنطقة مثلَ مثيلاتها في الأندلس حروبَ الاسترداد العنيفة والمتواصلة ، حتى تمكّن ملكُ قشتالة فرديناند الأول في سنة 456 هـ / 1064 م ، من الاستيلاءِ عليها وضمِّها إلى ممتلكاته.

وبعد استقرار المسيحيين البرتغال فيها، أصبحت المدينةُ عاصمةَ الإقليم الذي يحمل اسمَها، ولاحقاً عاصمةَ المملكة، مملكة ألفونسو أنريكي (ابن الريق ، الرنك في المصادر العربية) الذي كان يحمل لقب صاحب قلمرية (COIMBRA)، استمرت حتى منتصف القرن الثالث عشر.

جغرافيا ، تغطّي معظمَ أرض البرتغال من بازو شمالا إلى باجة جنوباً ، وكانت الدولةُ القائمة بها في هذا العهد دولةُ بني الأفطس الذين امتدّ عهدهم أزيدَ من سبعين سنة.

نصّ الرسالة :

وكتب **أبو نصر الفتح بن خاقان** في تهنئة أحد الأمراء بالانتصار :

أطالَ اللهُ بقاءَ القائدِ الأعلى، ونُجُومُ السَّعدِ في سَمائهِ متَّقِدَة ، وأفئدَةُالمَجْدِ لِعَلائهِ مُعْتَقِدَة ، ولا زَالَت الأيّامُ تَطلُعُ به سُرُورا ، وتَدَعُ الدّينَ به مَسْرُورا ، فقد ألبَسَ الإسْلامَ ظُهُورا ، وجعلَ يومَهُ مَشْهُورا ،وما تزالُ عَزَماتُ القائدِ الأعلى فَائزاتِ القِدْحِ المُعَلَّى ، فإذا رَمَى غَرضاً قَرْطَسَه ،وإذا أمَّ عَلَماً نَكَّسَه ، وإن قاتَلَ كَتيبةً كتَبَ إليها مِن المَنايا كُتُباً تقَعُ عليها وتَسْقُط ، والبِيضُ تَشْكُلُها ، والأسِنّةُ تَنْقُط .

وَرُبَّ يومِ هِياجٍ التهَبَتْ جوانِبُهُ بِتَوقُّدِ الهَجِير ، وحَامَتْ كُماتُهُ على نَهْرٍ أو غدير ، والقَتَامُ قد تكاثفَ كَحَائرِ الأَنْفَاس ، وتَرادَفَ فَمنعَ مِن تَدانَي الأَشْخاص ، والأسنّةُ تبدو كأنها أنَجُمُ السّماء ،والسُّيوفُ تَلُوحُ كأنّها جَدَاولُ مَاء ، فأوْرَدَهُم منها غَدْرَا ، لَم يُطِيقوا منها صَدْرا، وثنّى إليهم قَنَا أطرافِها قَصَد،وكأنهَا في سَماءِ النّقْعِ للكُماةِ رَصَد، فَصَبَّحَ **قُلْمُرْيَة** بكلّ فتىً كالحُسَامِ المُهَنَّد ، طَويلِ نِجادِ السّيْفِ رَحْبِ المُقَلَّد ، فَحالَ بَسيطَها بالغَارةِ الشَّعواء ، وأَراها بأنّهُ مُنسَجِمُ الأَهْوَاء . فقد أَحْمَاها وهو مُبَاح ، وأَرْواحُ فَوارِسِها تُستَبَاح ، فكأنَّ وَميضَ بِيضِهِ بُروقٌ وخَوَاطِف ، وهَامَاتِهِم أزهارٌ وَهْوَ قَاطِف.

فَأرْضُ الرُّومِ مِن وَقائعِ القائدِ الأَعلى قدِ اختُلِسَ فُؤَادُها، ويَئِسَ مِن اسْتِقلالِها عُوَّادُها، فلازالتِ الدّولةُ بِهِ مَحميّةَ الأَقْطَار ،مَقضِيَّةَ الأَوْطَار ،تتوالَى عليها الفُتُوحُ تَوَالي العِهَادِ على الرّوض ، والوارِدِ على الحَوْض.

التخريج : كنز الكُتّاب ومنتخَب الآداب لأبي إسحاق البونسي ص 370 - 371 .

الرسالة الثالثة :

1 ـ كاتب الرسالة هو أبو عمرو بن غيّاث الشريشي ، من أشهر كتّاب الدولة الموحدية ، حبّر رسائل ديوانية عديدة عن بلده شريش في مخاطبة أمراء هذه الدولة.

2 ـ البعد التاريخي للرسالة:

2ـ 1 ـ تحتل مدينة إشبيلية مكانا خاصا وأهمية كبرى لدى الموحدين ، إذ كان الخليفة يُدقّق في اختيار الشخص المناسب لولايتها ، فكان يخُتارُ لها من الولاة " من أبناء الجماعة النبهاء الفضلاء الفرسان الأنجاد من أهل الأديان ، حسب تعبير ابن صاحب الصلاة " المن بالإمامة، ص 217).
فضلا عن أنها كانت مدينة يُعقد فيها الصلح بين المسلمين والنصارى ، (انظر تفصيل ذلك في المن بالإمامة ص 436) .
كما كانت مركزا يستقبل فيه الخليفة يوسف بن عبد المومن أعيان الأندلس لتهنئته بما أحرز من فتح في غرب الأندلس (مما يستفاد من الرسائل الديوانية).
2 ـ 2 ـ الرسالة موجهة إلى والي مدينة إشبيلية السيد أبي إسحاق إبراهيم ابن يعقوب المنصور، ولاّه أخوه الخليفة الناصر على مدينة إشبيلية في سنة 600 هـ ، وفي سنة إحدى وستمائة عزله عن الولاية ، ويحكي لنا ابن عذاري الأسباب التي دفعت الناصر لذلك ، يقول :
" وعند وصوله إلى رباط الفتح ، اتصل به ماكان بإشبيلية من فتور الأحكام، وتبسُّط حواشي السيد أبي إسحاق بالمظالم ، وإغضائِه لهم ، وتغافُلِه عنهم ، ومشى ذلك على ألسنة الخَواص والعَوام " (البيان المغرب ص 243).
ثم أعاده إلى منصبه في سنة 605 هـ ، ثم طلب الإعفاء من مهمته فأعفاه الناصر منها في سنة 607 هـ ، وخَلَفه عَمّه أبو إسحاق إبراهيم فيها حتى وفاته سنة 612هـ ثنتي عشرة وستمائة.
ولا نعرف متى انتهت ولايتُه الأخيرة ، إذ إن ابن عبد الواحد المراكشي مؤلف كتاب المُعجب في تلخيص أخبار المَغرب ، يذكر أنه تركه والياً على إشبيلية في آخر ذي الحجة 613 هـ ، وبلغه وهو بمصر خبر وفاته سنة 617 هـ .
(ص 308 - 309).
ويقول فيه وقد كان قريبا منه محتفىً به لديه: " وهو خيرُوَلَده وأجدرُهم بالأمر لو كانت الأمور جاريةً على إيثار الحق، واطِّراح الهوى " (ص 308).
وهو الذي قال في ولايته الثانية :

فكأنّما حمـصٌ جـــمالاً ســـــارةٌ وكَــأنّ إبـــــراهـيمَ إبراهـــــــيـمُ
" وكان حفيا بالعلماء والأدباء ، يجتمع بهم ويأنس بصُحبتهم".

2 ـ 3 ـ نستشفّ من الرسالة عواطف أهل شريش الجيّاشة نحو الموحدين ، إذ مدَح السيّدَ أبا إسحاق إبراهيم كلٌّ من أبي عمرو بن غياث وأبي العباس بن شكيل، بمناسبة تعيينه والياً على إشبيلية في فترة اشتدت فيها الهجمات على المسلمين.
(كانت شريش من أوائل المدن الأندلسية التي أعلنت طاعتَها لهم ، إذ كانت أولَ مدينة دخَلها الموحدون صُلحا في سنة 539 هـ).

3- البعد المذهبي:
3- 1 ـ نظرا لاعتماد الدولة منذ تأسيسها على إطار مذهبي معيّن، فإننا نجد في هذه الرسالة، مثل معظم الرسائل الموحدية ، التصريحَ بعصمة المهدي، وتسميةَ خلفائه بالخلفاء الراشدين، كما نجد فيها العباراتِ المرتبطةَ بهذا المذهب مُعَبّرةً عن الموحدين، أو عن السلطة ومذهبها.
مثل : النظرالمهديّ ، النظرُ الإمامي ،الأمرالإمامي ، وأحيانا بعبارات مثل: حزب التوحيد، حزب الموحدين، طائفة التوحيد، طائفة الحق...
3- 2 ـ الخليفة المقصود هنا ، خليفُة المهدي بن تومرت دون غيره ، أي خليفة ابن تومرت الذي انفرد بالإحالة على المهدوية ، كما أنه انفرد بلقب الإمام بمعناه الشيعي المتميز.
ولا شك أن العامل المذهبي ، هو أحد الأركان الأساسية لقيام الدولة الموحدية واستمرارِها، وسيظل أمرُ الخلفاء بمراعاة القرآن والسُّنّة منصوصاً عليه في مختلف الرسائل، وعلى الخصوص رسائل تقاديم القضاة على الأقاليم إلى العهد الأخير من الدولة الموحدية.
3 ـ 3 ـ تتميز الرسالة بالاحتفال بالألقاب ومظاهر الفخامة ، وهي سمة عامة في الرسائل الديوانية في عصر الموحدين .
3- 4 ـ نكتشف في هذه الرسالة (وعموما الرسائل الديوانية الموحدية) خطابا سياسيا وإعلامياً ، نطّلع من خلاله على استراتيجية الدولة وإديولوجيتها وخُطّتها السياسية .

4- البعد الأدبي :
أ ـ امتازت الرسائل الديوانية في هذا العصر على العموم بميلها إلى الإسهاب والتطويل، بعكس ما نراه في الرسائل المرابطية ، وهي حافلة بضروب المحسّنات البديعية، وفِقَرُ السّجع فيها طويلة ، وهذا ما نلاحظه في هذه الرسالة ، إذ تتميز بالسّجع المنقاد(وهو أن يأتي متفقاً في الوزن والسجع) في خطبة الرسالة ، مثل : النّعماء ، السماء ، الأسماء ...

ب ـ شكّل التوازي هنا ملمحاً أسلوبيا بارزا، ويرجع هذا التوظيف الأسلوبي إلى محاولة الكاتب شدَّ انتباهِ المتلقّي من خلال تَكرار بعضِ الصّيَغ ذاتِ الوقع الخاص .
ج ـ استثمر ابنُ غياث إمكانيات الجناس الصوتية ، بوصفه أحدَ عناصرِ الإيقاع لتحقيق موسيقى مؤثّرة في نصوصه ، كما أنه ينبثق عن ذخيرة لغوية ثَرّة تمُده بالألفاظ المتجانسة والمتناسقة ، مع اتفاق وانسجام بين الألفاظ المتجانسة .
د ـ يبدو أن أثرالحريري واضح في أسلوب الرسالة ، ولاشك أن ابن غياث كان من بين الأدباء الأندلسيين الذين تأثروا بمقامات الحريري ، فضلا عن أن مدينة شريش التي ينتمي إليها كانت مركزا لدراسة المقامات الحريرية في الأندلس.
هـ ـ الرسالة تجمع بين النثر والشعر، حيث تتفاعل قصيدة ابن غياث مع قصيدة زهير ابنُ أبي سلمى ، في إطار عملية تناصية متداخلة العناصر والمكوّنات ، فنلاحظ :
ـ الأندلس مقابل الصحراء عند زهير ابن أبي سلمى، هو المركز الذي تتمحور حوله كلمات القصيدة وجُمَلها ، ويُعمَّم عبر الاستعارة والمجاز الموزَّعين في القصيدة.
ـ هناك عامل مشترك بينهما يتمثل في المدح .
ـ الشكل تقليدي لكن عناصر الخيال أندلسية.
ـ القصيدة تستجيب لمعطيات نظام تواصلي ، وسياق ثقافي معين وحقبة تاريخية محددة كذلك.
ـ جاءت القصيدة تذييلا لرسالة ديوانية .
ومن ثم فالسياق الثقافي والتاريخي هنا مرتبط بالحركة الثقافية العامة التي شجعها الموحدون .

نصّ الرسالة :

وكتب قريعُ دهرنا ، وأديبُ عصرنا ، الوزيرُ الأجلُّ أبو عمرومحمد بن عبد الله بنُ غَيّاث شيخنا في المعنى. (يقصد مخاطبة الأمراء ، والرسالة من أحسن ماكُتب في الموضوع) ، وهي مُوَجَّهَة إلى والي **إشبيلية** الأمير الموحّدي **أبي إسحاق إبراهيم ابنِ الخليفة يعقوب المنصور :**

الحمدُ للهِ مُوَالي الآلاء ، ومُسْبِغِ النّعْمَاء ، وجَاعلِ هذا الإقْبالَ ، المُوذِنَ بالإقبال ، عُنوانَ الفُتوحاتِ التي تُفتَحُ لهَا أبوابُ السَّماء ، ويَرتَبطُها النّصْرُ ارتباطَ الرَّيّ في المَاء، ويَخدُمُها بالسَّعدِ الذي تتَلاعبُ مَوادُّهُ بِصُروفِ الدَّهرِ تَلاعُبَ الأَفعالِ بالأسْماء. والصّلاةُ على سَيّدنا محمد خَاتمِ الرُّسُلِ والأنبياء ، الذي ما ضَلَّ ولا غَوَى ، ولا نَطَقَ عن الهوى .
والرّضَا عن الخلفاءِ الرّاشدين َ الهَادينَ إلى السّبيلِ السَّواء ، السّالكِينَ من أفعالِهِ وأقوالِهِ على المَحَجَّةِ الحَنِيفيةِ البَيْضاء ، وعن **الإمام المَعْصُوم المَهْديّ المَعْلُوم** ، الكَافي أَكُفَّ البَغْيِ والاعْتِداء ، وعن أَصْحابِهِ الأئمّةِ المَذخورينَ للأمرِ العزيز، يَتوارَثُهُ الأبناءُ عن الآباء.
والدّعاءُ لسيّدِنا ومولانا الخليفةِ الأَتْقى ، مَلْجأِ الدِّينِ الأَوْقى ،المُوَفَّقِ الآراء، سَيفِ اللهِ المُحَلّى بالمَحامدِ والثّناء .

وبعدُ ، فإنه لمّا كانت هذه **الجزيرةُ الأندلسيةُ** غَربِيَّةَ المَعْنَى على الإطلاق ، فَذَّةَ الحُسنِ باصطِفاقٍ واتّفاق، يُتَمَثَّلُ بها في الآفَاق ، وكانت بين عَدُوَّيْن يَقطَعَانِ عنها فيما سَلَف الأَرفَاقَ ، مِنَ الأَمنِ والأَرْزَاق ، أحدُهُما البحرُ الذي هي منهُ كالمِعصَمِ في سِوارٍ ، والثاني الكُفرُ الذي أحدقَ بهَا إحْداقَ الأَشْفارِ بالأَحْداق ، وكِلاهُما قد فَغَرَ عليها فاهُ لإضرامِ الأَعْلاَق ، وإطفاءِ الأنوارِ الوَاضِحةِ الإشْراق ، حتى عادَ بَدْرُها هِلالاً في قَبْضَةِ المُحَاق ، وكادت تَبكي عُيونُ السَّبعةِ الطِّباق، إلى أن تَلاَفاها **النَّظَرُ المَهديّ** ، و**الأمرُ الإمَاميّ** ، فأَحْيَا رمَقَهَا الخَافِت ، وأعادَ كمَالَها الفَائت ، ولم يَزَل **النّظرُ الإمامي** يَستمِدُّ لها على الدَّوام ، ويُلقيه خَليفةٌ إلى خليفةٍ ، وإمامٌ إلى إمام ، فيقعُ منها مَوْقعَ الماءِ الزُّلاَل ، على شِدّةِ الأُوَام ، إلى أن أَفْضَى النّظرُ إلى الخليفةِ العَليّ ، الإمامِ المَرضِيّ المُقتَفِي **أثرَ المَهديّ أبي عبدِ الله محمد ابن الخُلفاءِ الأئمّةِ** المُؤَيَّدِ بالنّصرِ الحَفيّ، الذي لا يَكتَحِلُ جَفنُهُ بِمَنَام . يَحْملُ بينَ جوانِحِهِ إقبالَ ضِرْغَام، في ذَكاءِ إياس ، وعِلْمِ ابنِ العبَّاس ، وحِلْمِ الأحنَف ، ورَصانةِ رَضوَى ، وتَخدُمُه

صُروفُ الدّهرِ في كلّ مقام ،وَيُيَسِّرُ لهُ السَّعدُ كلَّ مَرَام ، حتى عَادَت لياليهِ مُشرِقةً كَالأيّام، مُجْلِيةً دَياجي الظُّلْم ، وَسَدَفِ الإظْلاَم ، صِنْوُ الخليفةِ الذي تُزهَى الدّنيا به شَرَفا ، ومُجْتَنِي الخَلافةَ حَسَباً ونسَباً وسلَفا . السَّيّدُ المُعظَّمُ الشّأن ، المُوَقَّرُ المَكانِ **أبو إسحاق** ، المُحتسِبُ نفسَهُ وبَنيهِ ومَالَهُ في نَصْرِ الدّينِ وحِياطَةِ المسلمين قُرُباتٍ عند اللهِ وزُلفى .

يقودُ جيوشاً يضيقُ عنها ذَرْعُ الزّمان ، ويخشى سَطْوَتَها طارِقُ الحَدثان ،وينصرِفُ، بأمرِ اللهِ ، الذين هُم حزبُهُ المَلَوان : (من الطويل)

فَمَنْ سَرَّهُ المَحْيا فَسَمعٌ وطاعةٌ ومَنْ يَحسُدِ المَوتى يُدِنْهُ بِعِصيانِ

فبُشْرَى ثم بُشرَى للأندلسِ والإسلامِ و**بِحِمْصَ**، فكَم قد تزخرَفَتْ لهذا الإقبال ، كأنها جَنةُ الرّضوان، فادخُلوهَا بِسلام، نزَّهَ اللهُ عن السِّرارِ بُدورَ كَمالِهِم، وضاعَفَ إشراقاً أنوارَ جَلالِهم ، ولا يُضْحِنَا من وَارفِ ظِلالِهِم ، ومَنَّ علينا بِقَبولِهِم وإقبالِهِم .

ثم خَتَمَ الرسالة بهذه القصيدة الفريدة : من الطويل

إذا لم يُجِبْني الدَّهرُ حين أُسائلُه ... سَيتلُو لِسانُ الأمرِ ما أنا قائلُه

فَلِلمَلإِ الأعْلى حديثٌ تُذيعُهُ ... لنا ألسُنُ الأيامِ فَهْيَ رَسَائلُه

صَحائِفُها إذْ تَجْتَلِي صَفحاتُها ... تُبَشِّرُ بالفَتْحِ الذي حانَ آجِلُه

قُدُومُ أبي إسحاقَ يُمْنٌ ورَحمةٌ ... وأَمْنٌ وَفَتْحٌ يَجمعُ الكُلَّ شَامِلُه

فَلِلَّهِ يومٌ قدْ تَجَلَّى بِأُفْقِهِ ... ولَيسَ لَهُ بالأُفْقِ نُورٌ يُماثِلُه

إذا أمَّ أرضَ الشِّرْكِ تُنشِدُ أهلُها ... صَحا القَلْبُ عن سَلمى وأقصَرَ باطِلُه (1)

أَلَمْ يَعلَموا أنَّ الغَمَامَ إذا هَمَتْ ... سَحائِبُهُ لا تستَطيعُ تُصاوِلُه

أَلَمْ يَعلَموا أنَّ البِحارَ تَمُدُّها ... إذا هيَ فاضَتْ بالنَّوالِ أنَامِلُه

ويَاحِمْصُ بُشْرى ثمَّ بُشْرَى عَميمةٌ ... بِحِزْبِ هُدىً وَافاكِ واللهُ كَافِلُه

التخريج : كنز الكُتّاب ومنتخَب الآداب لأبي إسحاق البونسي ص 280 - 288 .

---

1 ـ مقتبَس من مطلع قصيدة زهير :

صَحا القلبُ عن سَلْمى وأقصَرَ باطِلُه ... وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا ورواحِلُه